الـزُّهـد

□ الزُّهد □

الدنيا هزيلة زهيدة ، فهوّن من شأنها ، وارفع نفسك عنها .

قال تعالى : ﴿ **اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرًا ثم يكون حطامًا وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ [الحديد : ٢٠].

قال صاحب الظلال :

الحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها هي ، وتوزن بموازينها تبدو في العين وفي الحسّ أمرًا عظيمًا هائلًا ، ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة تبدو شيئًا زهيدًا تافها . وهي هنا في هذا التصوير تبدو لعبة أطفال بالقياس إلى ما في الآخرة من جد تنتهي إليه مصائر أهلها بعد لعبة الحياة ! لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر ، هذه هي الحقيقة وراء كل ما يبدو فيها من جد حافل واهتمام شاغل .

فأما الآخرة فلها شأن غير هذا الشأن ، شأن يستحق أن يحسب حسابه ، وينظر إليه ويستعد له : ﴿ **وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان** ﴾ فهي لا تنتهي في لمحة كما تنتهي الحياة الدنيا ، إنها حساب .. وجزاء .. ودوام .. يستحق الاهتمام .

﴿ **وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ [الحديد : ٢٠] .

فما لهذا المتاع حقيقة ذاتية ، إنما يستمد قوامه من الغرور الخادع ؛ كما أنه يلهي وينسي فينتهي بأهله إلى غرور خادع . وهي حقيقة حين يتعمق القلب في طلب الحقيقة ، حقيقة يقصد بها القرآن تصحيح المقاييس الشعورية ، والقيم النفسية ، والاستعلاء على غرور المتاع الزائل وجاذبيته المقيدة بالأرض .

ومن ثم يدعوهم إلى السباق في ميدان السباق الحقيقي ، للغاية التي تستحق السباق .

فليس السباق إلى إحراز اللهو واللعب والتفاخر والتكاثر بسباق يليق بمن شبوا عن الطوق ، وتركوا عالم اللهو واللعب للأطفال والصغار ! إنما السباق إلى ذلك الأفق ، وإلى ذلك الهدف ، وإلى ذلك الملك العريض ﴿ **جنة عرضها كعرض السماء والأرض** ﴾ [الحديد : ٢١](١) .

قال تعالى : ﴿ **من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون** ﴾ [هود : ١٥-١٦] .

قال سيد قطب رحمه الله :

من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها فعمل لها وحدها ، فإنه يلقى نتيجة عمله في هذه الدنيا ، ويتمتع بها في أجل محدود ، ولكن ليس له في الآخرة إلا النّار ؛ لأنه لم يقدم للآخرة شيئًا ، ولم يحسب لها حسابًا ، فكل عمل الدنيا يلقاه في الدنيا ، ولكنه باطل في الآخرة لا يقام له فيها وزن ، وحابط وهي صورة مناسبة للعمل المنتفخ المتورم في الدنيا وهو مؤدٍ إلى الهلاك !(٢) .

قال الشيخ محمد رشيد رضا :

أولئك الموصوفون بما ذكر ليس لهم في الآخرة إلا دار العذاب المسماة بالنار ؛ لأن الجزاء فيها كالجزاء في الدنيا على الأعمال(٣).

قال القشيري :

أولئك الذين خابت آمالهم ، وظهرت لهم بخلاف ما احتسبوا آلامهم ، حبطت أعمالهم ، وحاق بهم سوء حالهم(٤).

---

(١) الظلال (٣٤٩٢/٦) .

(٢) الظلال (١٨٦٢/٤) .

(٣) تفسير المنار (٤٨/١٢) .

(٤) لطائف الإشارات (١٢٩/٢) .

وقال تعالى : ﴿ **من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذمومًا مدحورًا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورًا** ﴾ [الإسراء : ١٨-١٩] .

قال القرطبي :

قوله تعالى : ﴿ **من كان يريد العاجلة** ﴾ يعني الدنيا ﴿ **عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد** ﴾ أي لم نعطه منها إلا ما نشاء ، ثم نؤاخذه بعمله ، وعاقبته دخول النار ﴿ **مذمومًا مدحورًا** ﴾ أي مطردًا مبعدًا من رحمة الله(١) .

قال القشيري :

من رَضيَ بالحظ الخسيس من عاجل الدنيا بَقي عن نفيس الآخرة ، ثم لا يحظى إلا بقدر ما اشْتَمَّهُ ، ثم يكون آنس ما به قلبًا وأشد ما يكون به سكونًا ؛ ثم يُختطف عن نعمته ، ولا يخصه بشيء مما جمع من كرائمه ، ويمنعه من قربه في الآخرة ، ولقد قيل :

يا غافلًا عن سماع الصوت　　إن لم تبادر فهو الفوتُ
من لم تزُل نعمته عاجلًا　　أزاله عن نعمته الموتُ(٢)

يقول الشيخ سيد قطب :

وبعد فإن من أراد أن يعيش لهذه الدنيا وحدها ، فلا يتطلع إلى أعلى من الأرض التي يعيش فيها ، فإن الله يعجل له حظه في الدنيا حين يشاء ، ثم تنتظره في الآخرة جهنم عن استحقاق ، فالذين لا يتطلعون إلى أبعد من هذه الأرض يتلطخون بوحلها ودنسها ورجسها ، ويستمتعون فيها كالأنعام ، ويستسلمون فيها للشهوات والنزعات . ويرتكبون في سبيل تحصيل اللذة الأرضية ما يؤدي بهم إلى جهنم .

والذي يريد الآخرة إنما يمد بالبصر إلى آفاق أعلى فلا يكون المتاع في الأرض

(١) تفسير القرطبي (٣٨٥١/٦) .

(٢) لطائف الإشارات (١٤/٤) .

هو الهدف والغاية . ولا ضير بعد ذلك من المتاع حين يملك الإنسان نفسه ، فلا يكون عبدًا لهذا المتاع .

وإذا كان الذي يريد العاجلة ينتهي إلى جهنم مذمومًا مدحورًا ، فالذي يريد الآخرة ، ويسعى لها سعيها ، ينتهي إليها مشكورًا ، يتلقى التكريم في الملأ الأعلى جزاء السعي الكريم لهدف كريم ، وجزاء التطلع إلى الأفق البعيد الوضيء .

إن الحياة للأرض حياة تليق بالديدان والزواحف والحشرات والهوام والوحوش والأنعام ، فأما الحياة للآخرة فهي الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله ، الذي خلقه فسوّاه ، وأودع روحه ذلك السر الذي ينزع به إلى السماء ، وإن استقرت على الأرض قدماه .

والتفاوت في الأرض ملحوظ بين الناس بحسب وسائلهم وأسبابهم واتجاهاتهم وأعمالهم ، ومجال الأرض ضيق ، ورقعة الأرض محدودة ، فكيف بهم في المجال الواسع وفي المدى المتطاول . كيف بهم في الآخرة التي لا تزن فيها الدنيا كلها جناح بعوضة ؟ .

فمن شاء التفاوت الحق ، ومن شاء التفاضل الضخم ، فهو هناك في الآخرة . هنالك في الرقعة الفسيحة ، والآماد المتطاولة التي لا يعلم حدودها إلا الله ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، لا في متاع الدنيا القليل الهزيل[(١)].

قال رسول الله ﷺ : « أقصر من جشائك ، فإن أكثر الناس شبعًا في الدنيا أكثرهم جوعًا في الآخرة »[(٢)].

والجزاء من جنس العمل .

وقال ﷺ : « أكثر الناس شبعًا في الدنيا أطولهم جوعًا في الآخرة »[(٣)].

---

(١) الظلال (٤/٢٢١٩) .

(٢) حسن : رواه الحاكم في المستدرك عن أبي جحيفة ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٢٩٠ ، والصحيحة رقم ٣٤٢ .

(٣) حسن : رواه أبو نعيم في الحلية عن سلمان ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١٢١٠ .

وقال رسـول الله ﷺ لعمر : « أما ترضى أن تكـون لهم الدنيا ولنـا الآخرة »[١].

وقال رسول الله ﷺ : « حلوة الدنيا مرّة الآخرة ، ومُرّة الدنيا حلوة الآخرة »[٢].

قال المناوي :

يعني لا تجتمع الرغبة فيها والرغبة في الله والآخرة بها ، ولا يسكن هاتان الرغبتان في محل واحد ، وإلا طردت إحداهما الأخرى ، واستبدت بالمسكن ، فإن النفس واحدة ، والقلب واحد ، فإذا اشتغلت بشيء انقطع ضده[٣].

ويحتمل أن يكون المراد : حلوة الدنيا : ما تشتهيه النفس في الدنيا، مرة الآخرة : أي يعاقب عليه في الآخرة ، ومرّة الدنيا : ما يشق عليه من الطاعات ، حلوة الآخرة: أي يثاب عليه في الآخرة .

وقال رسول الله ﷺ : « من جعل الهموم همًّا واحدًا ؛ همّ المعاد ، كفاه الله سائر همومه ، ومَنْ تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا لم يبالِ الله في أي أوديتها هلك »[٤].

قال إدريس الحداد :

كان أحمد بن حنبل إذا ضاق به الأمر ، آجر نفسه من الحاكة . فسوّى لهم ، فلما كان أيام المحنة وصُرف إلى بيته ، حُمِل إليه مال ، فردّه وهو محتاج إلى رغيف ، فجعل عمه إسحاق يحسُب ما يردّ ، فإذا هو خمسمائة ألف . قال :

---

(١) رواه الشيخان ، وابن ماجة عن عمر .

(٢) رواه أحمد في مسنده ، والطبراني في الكبير ، والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي مالك الأشعري ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٣١٥٠ ، والصحيحة ١٨١٧ .

(٣) فيض القدير (٣/٣٩٦) .

(٤) حسن : رواه ابن ماجة عن ابن مسعود ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم عن ابن عمر وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٦٠٦٥ .

فقال : يا عم ، لو طلبناه لم يأتنا ، وإنما أتانا لما تركناه[١].

عن ابن المسيب قال : من استغنى بالله ، افتقر الناس إليه ، وعلى الطرف الآخر .

قال أبو بكر السدوسي : لما وُلدتُ دخل أبي على أمي ، فقال : إن المنجمين قد أخذوا مولد هذا الصبي ، وحسبوه فإذا هو يعيش كذا وكذا ، وقد حسبتها أيامًا ، وقد عزمت أن أعدّ لكل يوم دينارًا ، فأعد لي حُبا وملأه ، ثم قال أعدّي لي حُبًّا آخر فملأه استظهارًا ، ثم ملأ ثالثًا ودفنهم .

قال أبو بكر : وما نفعني ذلك مع حوادث الأيام ، وقد احتجت إلى ما ترون .

قال أبو بكر بن السقطي : رأيناه فقيرًا ، يجيئنا بلا إزار ، ونسمح عليه ، ويُبَرّ بالشيء بعد الشيء[٢] .

وقال رسول الله ﷺ : « من كانت همّه الآخرة ، جمع الله له شمله ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا راغمة ، ومن كانت همّه الدنيا ، فرّق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب الله له »[٣].

وقال رسول الله ﷺ : « إن فقراء المهاجرين يسبقون الأغنياء يوم القيامة إلى الجنة بأربعين خريفًا »[٤].

وقال رسول الله ﷺ : « إن الجنة لتشتاق إلى ثلاثة ؛ علي ، وعمار ، وسلمان »[٥].

عن سفيان : مَنْ يبرّ بالدنيا ، نزع خوف الآخرة من قلبه[٦].

---

(١) سير أعلام النبلاء (١١/٣٠٠) .

(٢) سير أعلام النبلاء (١٥/٣١٣) .

(٣) صحيح : رواه ابن ماجة عن زيد بن ثابت ، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦٣٩٢ ، والصحيحة رقم ٩٤٨ .

(٤) رواه مسلم عن ابن عمرو .

(٥) حسن : رواه الترمذي ، والحاكم عن أنس ، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ١٥٩٤ .

(٦) سير أعلام النبلاء (٧/٢٦٨) .

وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « فقراء المهاجرين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسائة سنة »[1].

قال ابن القيم : والمقصود أن سعة الدنيا وبسطها تعجيل من أجل الآخرة وتضييق من سعتها .

عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال : لما كان يوم أحد أشرف النبي ﷺ على الشهداء الذين قتلوا يومئذ ، فقال : « إني شهيد على هؤلاء فزملوهم بدمائهم » .

وفي الصحيحين عن خباب بن الأرت - رضي الله عنه - قال : هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله ، فوقع أجرنا على الله ، فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئًا ، منهم مصعب بن عمير - رضي الله عنه - قتل يوم أحد ، وترك بردة ، فكنا إذا غطينا بها رأسه بدت رجلاه ، وإذا غطينا رجلاه بدا رأسه، فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطي رأسه ، ونجعل على رجليه شيئًا من الإذخر ، ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها .

وفي الصحيحين عن قيس بن أبي حازم قال : دخلنا على خباب نعوده وقد اكتوى سبع كيات ، فقال : إن أصحابنا الذين سلفوا مضوا ، ولم تنقصهم الدنيا ... وذكر الحديث .

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : « ما من غازية تغزو في سبيل الله فيصيبون الغنيمة إلا تعجلوا ثلثي أجرهم من الآخرة ، ويبقى لهم الثلث ، وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم » .

وعن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : ما أوتي عبد من الدنيا شيئًا إلا نقص من درجاته عند الله وإن كان كريمًا .

فاحذر الدنيا يا أخي ، فإنها كما قال يحيى بن معاذ : خمر الشيطان مَنْ سكر منها فلا يفيق إلا في عسكر الموتى ، نادمًا بين الخاسرين.

---

(١) رواه الترمذي وحسنه ابن القيم في عدة الصابرين .

وعن عيسى ابن مريم عليه السلام : « لا تتخذوا الدنيا ربا ، فتتخذكم الدنيا عبيدًا ، اكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه ، فإن صاحب كنز الدنيا يخاف عليه الآفة ، وإن صاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة »[1].

وعنه : « ما سكنت الدنيا في قلب عبد إلا وليط[2] قلبه منها بثلاث : شغل لا ينفك عناؤه ، وفقر لا يدرك غناه ، وأمل لا يدرك منتهاه ، الدنيا طالبة ومطلوبة ، فطالب الآخرة تطلبه الدنيا حتى يستكمل فيها رزقه ، وطالب الدنيا تطلبه الآخرة حتى يجيء الموت فيأخذه بعنقه »[3].

* * *

(١) ذم الدنيا لابن أبي الدنيا ، تحقيق مجدي السيد إبراهيم ص٢١ مكتبة القرآن .
(٢) أي التصق بقلبه .
(٣) ذم الدنيا ص٢٢ ، والإحياء (١٩٨/٣).